Al-Adab Journal **Issue. No (155) (December) 2025**

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

Verses of Light and Observation of Quranic Imagery

Aseel Emad Mohamed Elhourani
Graduate Student
Department of Arabic Language - College of Arts, Humanities and Social Sciences - University of Sharjah
U22104402@sharjah.ac.ae
Prof. Benissa Bettahar (PhD)
Department of Arabic Language - College of Arts, Humanities and Social Sciences - University of Sharjah
benissa@sharjah.ac.ae

Copyright (c) 2025 **Aseel Emad Mohamed Elhourani, Prof. Benissa Bettahar (PhD)**

DOI: https://doi.org/10.31973/2a3zhe89

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Abstract:

This research is an analytical study of the verses of light and contemplation in the Quranic imagery. It aims to reveal the value of light and contemplation as two essential elements in the process of the Quranic call to monotheism. The research also revealed the role of each of them in shaping the Quranic image, which in turn aims to influence the recipient who considers light and contemplation as essential foundations in his life. The research included two topics. The first studies (the word light in the Holy Quran) and its most prominent locations in the Quran and its relationship to everything that is sublime such as Allah - Glory be to Him - and His guidance and His message in contrast to darkness and its relationship to misguidance and disbelief. As for the second, it studies (the word contemplation in the Holy Quran) and the places where the word appeared due to the specificity of the Quranic imagery. The analytical approach was chosen to study these verses, and the research reached several results, including: the necessity of light and contemplation in shaping the Quranic imagery that embodies important abstractions such as belief in the oneness of Allah and Islam in His religion.

Keywords: The Holy Quran, Light, Sight, Quranic imagery, Analytical method.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

آيات النور والنظر في التصوير القرآني

الباحثة أسيل عماد الحوراني
طالبة دراسات عليا، جامعة الشارقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها
U22104402@sharjah.ac.ae

أستاذ دكتور بن عيسى بطاهر
جامعة الشارقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها
benissa@sharjah.ac.ae

(مُلَخَّصُ البَحث)

هذا البحث دراسة تحليلية لآيات النور والنظر في التصوير القرآني، وهو يهدف إلى كشف قيمة النور والنظر بوصفهما عنصرين رئيسين في عملية الدعوة القرآنية للتوحيد، وكشف البحث دور كل منهما في تشكيل الصورة القرآنية التي تهدف بدورها إلى التأثير في المتلقي الذي يعد النور والنظر أساسيات ضرورية في حياته، واحتوى البحث على مبحثين، الأول: يدرس (لفظة النور في القرآن الكريم) وأهم مواقعها في القرآن وعلاقتها بكل ما هو جليل كالله – سبحانه وتعالى – وهداه، ورسالته في مقابل الظلام وعلاقته بالضلالة والكفر. أما الثاني: فيدرس (لفظة النظر في القرآن الكريم) والمواضع التي جاءت فيها اللفظة لخصوصية التصوير القرآني، وقد أُختير المنهج التحليلي لدراسة هذه الآيات، وتوصل البحث لنتائج عدة منها: ضرورة النور والنظر في تشكيل التصوير القرآني المجسم للمجردات المهمة مثل: الإيمان بوحدانية الله والإسلام بدينه.

الكلمات المفتاحية: (القرآن الكريم/ النور/ النظر/ التصوير القرآني/ المنهج التحليلي).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحديث عن النور والنظر بوصفهما المصدرين المشكلين للصورة القرآنية أمر ضروري؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم قد أمر عباده بالنظر بصريح العبارة – مراتٍ عديدة – إلى نعيمه وعقابه، وكثيرًا ما ابتدأت بعض الآيات بحَثِّ الإنسان على استعمال نظره للتأمل والتفكر، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾]الأعراف:١٨٥[؛ أي أن الدعوة للتفكر بالصور القرآنية والنظر فيها، كانت دعوة صريحة واضحة. وهذه الدعوة الصريحة هي نوع من أنواع الحجاج القرآني ، فنجد فيه أخذ بيد المجادل إلى التفكر في ملكوت الله سبحانه وتعالى بلين ورفق (الألمعي، ١٤٠٤هـ، ص٧). ومن اللافت أن يكون خطاب القرآن ودعوته لهداية البشر مقترنةً بألفاظ النظر في

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

أكثر من موضع، وبما يدل عليها من ألفاظ أخرى: كالرؤية، والبصر، والتفكر، والتعقل، والاعتبار، وغيرها. ويظهر من ذلك أن استعمال العين في النظر سبيلٌ من سبل الهداية. فإما يحسن العبد استعمالها، أو تكون يوم المحشر شاهدةً عليه بكفره وعناده ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠]. أما عن لفظة النور فكان لها في القرآن الكريم مكانة رفيعة؛ حيث جاءت اللفظة في معظم السياقات في حالة إيجابية جليلة، مُمثلًا لمحسوسات ومجردات عدة مبجلة شريفة، هي: الله سبحانه وتعالى، والقرآن، والنبي محمد ﷺ، والإيمان، والهدى، والإسلام، والمؤمنون، والحلال، والنهار، والقمر (درويش، ٢٠١٣م، ص٥٤).

تتجلى أهمية البحث في محاولتها دراسة دور النور والنظر في الصور القرآنية التي تهدف بدورها التأثير في المتلقي، وما له من دور ثقيل في إتمام غاية القرآن الكريم من هداية البشرية للإسلام بالله ﷻ الإله الواحد الأحد البديع في خلقه، القدير في حكمه. ومن هذا المنطلق، فإن من أسباب اختيار هذا الموضوع: أولًا: رغبة ذاتية في استثمار الجهد البحثي في استقراء كتاب الله سبحانه وتعالى ودراسته دراسة موضوعية من جانب جمالي، إذ هو جانبٌ مهم لا يمكن تغافله أو تهميشه في مقابل الجوانب الأخرى. ثانيًا: بعد اطلاع سريع على الصور القرآنية في القرآن الكريم، تبين أن لعملية النظر التي وهبها الله للإنسان ارتباطًا وثيقًا بهذه الصور، بل أنه سبحانه وتعالى يبدأ الآيات المصورة بدعوة الإنسان للنظر، تليها عرض صور زاهية بالألوان وبديعة في تكوينها لما للنور من دور أساس في ذلك وهو العنصر الأكثر ابهارًا للبشرية مذ خلقت. وتتحدد إشكالية البحث عن طريق محاولة كشف دور النور والنظر في تشكيل الصورة القرآنية، ومدى تأثير كل منهما في المتلقي وكيف يستثمرها؟ وكيف عليه الاستفادة من هذا الاستثمار؟ كما نصت الآيات القرآنية.

ومن الدراسات السابقة التي تطرقت لموضوع النور والنظر في القرآن الكريم: أولًا دراسة بعنوان: آيات النور في القرآن الكريم (دراسة موضوعية) لعبد الله حازم أبو غزالة وهي رسالة ماجستير أجيزت سنة (٢٠٠٩م) في جامعة آل البيت، تتحدث هذه الدراسة عن النور في القرآن الكريم وعن الألفاظ ذات الصلة به، ومصادره، وأسباب وجوده وزواله، والآثار التربوية لآيات النور في حياة الإنسان. في حين يركز بحثي على دور النور من الناحية الجمالية المتمثلة بالتصوير القرآني. ثانيًا دراسة بعنوان: ألفاظ النظر في القرآن الكريم (دراسة دلالية) لستار جبار هاشم وهو بحث منشور في مجلة اللغة العربية وآدابها في جامعة الكوفة سنة (٢٠٠٧م) وتناولت هذه الدراسة ألفاظ النظر ودلالاته ومشتقاته وتصريفاته. في حين يركز بحثي على ألفاظ النظر التي تقترن بالتصوير القرآني.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

اتخذ البحث المنهج التحليلي منهجًا للدراسة، وهو منهج قائم على تحليل أجزاء الموضوع كافة عبر تفكيكه وتفسيره، ثم تقويمه ونقده، وأخيرًا تركيبه. وهذه الآليات تتطلب عدة أدوات يمكن الاستفادة منها، مثل: الوصف، والاستقراء، والإحصاء، والمقارنة، وغيرها. وقد قُسم البحث إلى مبحثين على النحو الآتي: المبحث الأول: لفظة النور في القرآن الكريم. المبحث الثاني: لفظة النظر في القرآن الكريم.

المبحث الأول: لفظة (النور) في القرآن الكريم:

ترى العين الألوان بفضل الضوء؛ "إذ يتأثر لون العنصر وشكله وقوامه بموقعه من حيث الإضاءة وشدتها" (سليم، ١٩٨٤م، ص١١٩). والضوء عنصر له قيمة كبيرة ما جعل بعض الأقوام السابقين يتخذون الشمس إلهًا للعبادة من دون الله؛ ذلك أنهم رأوا الشمس وما تمده من نورٍ يطال الكون كله، قوة تستحق أن تبجل، فعبدها الوثنيون، وكذلك المصريون القدامى الذين أخذوا يصورونها بوضوح في بنائهم المعماري، وحتى حين دخلت العادات الوثنية إلى المسيحية كانت الشمس أهم ما مثل المسيح، فجعلوا يوم ميلاده يطابق يوم ميلاد إله الشمس الذي لا يقهر عند الرومان (عبد الرحمن، ٢٠٢١م، فقرة ٤)؛ وسبب هذا كله يرجع لقيمة الضوء التي وجدها البشر قادرةً على هدايتهم الطريق، وردع الظلام وكشف تنوع الكون بالألوان.

ولعلمه سبحانه بمحدودية الإدراك البشري، عرف نفسه لعباده كي لا يشركوا معه خلقه، وقال لهم إن هذه الشمس ما هي إلا آية من آياته: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾]فصلت:[٣٧. فعلى قدر عظم هذه الشمس، ما هي إلا مخلوق من مخلوقات الله، وليس نورها كنور ربها، الذي جعل النور صفةً من صفاته حين قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾]النور:٣٥[. وللمتلقي الذي يعرف قيمة النور في حياته، أن يعرف قيمة جعل الله النور صفة من صفاته. وفي موضعٍ آخر، عرضت سورة الأنعام بحث إبراهيم – عليه السلام – عن الله، فكان أول شكه في السماء وأجرامها المضيئة، حتى قال عن الشمس حين بزغت: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾]الأنعام:٧٨[. فنور الإله يستحيل أن ينقطع؛ لذا أدرك إبراهيم – عليه السلام – بعقلية علمية حجاجية أن النور قد يكون من صفات الإله، لكن انقطاعه يستحيل أن يكون كذلك.

الله نور السماوات والأرض، واختار الله كلمة (النور) لا (الضوء)؛ ذلك أن النور كما يقول السيوطي(٩١١هـ): أعم وأشمل من الضوء، والنور يقال للكثير والقليل، في حين أن الضوء لا يقصد به إلا الكثير، ويضيف: إن "في الضوء دليل على النور فهو أخص منه

فعدمه يوجب عدم الضوء بخلاف العكس" (السيوطي، ٢٠١٧م، ص٥١٠). ويتفق الآلوسي(١٢٧٠هـ) على أن النور أصل والضياء هو ما ينتشر منه، إلا أنه يضيف من الأقوال ما يشير إلى أن الضياء يكون اسمًا لما يصدر من ذاته، والنور لما يفيض عليه من مقابلة، استشهادًا بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يونس:٥[. ولكنه يرى أن الأَوْلى في الفرق هو ما يتعلق بعموم النور وخصوص الضوء، وإن الثاني جنس من الأول (الآلوسي، ١٩٩٤م، مج٩، ص٣٥٤). وأرى القول الثاني – بناءً على آية النور – غير دقيق، وعلى الرغم من كونه الأكثر شيوعًا في التفريق بين الضوء والنور وقد تبناه الشعراوي في تفسيره للآية نفسها؛[١] (الشعراوي، ١٩٩٧م، ج٩، ص٥٧٣٨). ذلك أن النور لو كان مما يستمد من غيره لما اختاره الله ليمثل به نفسه.

وبغض النظر عن المقصود بالنور في الآية الكريمة، إن كانت بمعنى الموجد، أم المدبر أم الهادي[٢] (الآلوسي، ١٩٩٤م، مج٩، ص٣٥٣–٣٥٧). فإن المواضع التي جاء فيها وصف الله لذاته بالنور – إذا ما أخذت من جانب تصويري فني – مواضع فريدة، دقيقة التعبير، محببة للنفس، يُبَثُّ منها معاني اللجوء، والمنال، والفوز؛ ذلك أن الصورة التي سيتلقفها المخاطَب من قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾]النور:٣٥[. هي صورة محلٍ مظلم مستوحش مغطى بالسواد، ينبعث من أحد أركانه ضوء مصباح صافي الإنارة، حاله كحال كوكب منير في سماء الليل المعتم، وهذا النور في التصوير القريب هو ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ﴾. فهذا المثال وما فيه من اعتبارات "مما توجب كمال الضوء" (الرازي، ١٤٢٠هـ، ج٢٣، ص٣٨٦). كما يقول الرازي(٦٠٦هـ) في التفسير الكبير. وسرد ما يوجب ذلك من وجود المصباح في مشكاة تجمع الضوء فلا يتفرق، وخروج الضوء من زجاج صافي يزيد النور، وإيقاد المصباح بدهن نقي خالص من شجرة مباركة في موضع تغذيه الشمس فيكون الزيت أنضج ما يكون.

[١] يشير الشعراوي إلى أن الضوء هو ما يصاحبه الدفء والحرارة، في حين أن النور إنارة حليمة لا يحتاج بوجودها إلى ظل يستظل منه، ومن هذا المنطلق يرى أن الضوء يستلزم أن يكون ذاتيًا بينما النور يكتسب من غيره. ويستفاد من قوله الأول - في سياق هذه الدراسة - دقة اختيار القرآن النور وصف لله ولكل جليل رفيع.

[٢] عرض الآلوسي في تفسيره أقوال المفسرين المختلفة في المقصود بالنور في قوله تعالى: (الله نور السماوات والأرض).

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

هذا كله – لا شك – يعطي صورة عن مقدار شدة هذا النور وجلائه كما تريد الآية أن تبين. ولكن المتلقي وبالتصوير البعيد – أي بالنظر إلى هذا المصباح من زاوية بعيدة – سيدرك أن هذا النور البهي يضيء من موضع محدد دل عليه قوله تعالى: ﴿مِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾. فالمصباح في زاوية من غرفة وهي معتمة: أولًا: لأن هذا النور ما كان ليظهر للرائي بهذا الجمال والنقاء لو كان في المكان المستنير ولو بالنور القليل، ثانيًا: لأن المصباح هو السراج (الأندلسي، ١٩٨٣م، ص١٩٢). وقد دل على ذلك وصفُ سبحانه لهذا المصباح بأنه يوقد من الزيت، ولفظة السراج مقترنة بألفاظ الليل والدجى وغيرها، ومن ثم فإن صورة من مثل صورة نورٍ ينير وسط السواد من الممكن أن تتبادر إلى ذهن المخاطَب. وكما يقول مصطفى عدوي: "الأمثال يتجوز فيها بعض التجوز عند المفسرين، فلا يلزم أن يتحد المفسرون على وجه واحد في تفسير المثل، بل في هذا الباب فسحة لأهل التفسير ما لم يخالفوا نصاً شرعياً أو أصلاً من الأصول في الكتاب والسنة ... والله أعلم" (العدوي، ج٣٥، ص١٨). وهذا الكلام ينطبق على التصوير، الذي لا يمكن أن يكون موحدًا في أذهان عامة المخاطبين بدرجة واحدة.

سيدرك القارئ من هذه الصورة المحكمة المراد الأساس الذي تريده الآية والذي لأجله نزل الكتاب الكريم، وهو: إن دلائل الإيمان في غاية الظهور وأن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء (الرازي، ١٤٢٠هـ، ج٢٣، ص٣٧٨). وذلك هو نور الله ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾]النور:٣٥[. إن هذا النور الإلهي ممتدٌ لا ينفد، وموجودٌ لا ينقطع، "إنه نور يتجاوز حدود الزمان والمكان، فهو متصل بالذات الإلهية، ومنه ينساب عبر الدائرة الكونية الممتدة بين السماوات والأرض" (الصفار، ٢٠١٠م، ص٣٦٣). وقد عدَّه الغزالي(٥٠٥هـ) نورًا على الحقيقة، ولكن عين الإنسان لا تطوله لشدة هذا النور، ومحدودية قدرتها، فيقول إنه: "لا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه" (الغزالي، ص٦٤). كما جاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ كان قد سُئل بعد حادثة الإسراء والمعراج إن كان رأى الله سبحانه فقال ﷺ: "نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ" (مسلم، ١٩٥٥م، ج١، ص١٦١ / ١٧٨). وهذا النور سينجلي للناس يوم القيامة كما جاء في سورة الزمر: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾]الزمر:٦٩[. وفي تفسير ابن كثير لهذه الآية يقول: "أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء"؛ (ابن كثير، ٢٠٠٠م، ص١٦٢٩). ذلك أن كل خلقه سبحانه سيكونون يوم إذ في ظلام، فمن أهوال يوم القيامة انتفاء مصادر الضوء، وقد ورد عن الرسول ﷺ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ.." (الترمذي، ١٩٩٦م، ج٤، ص٣٨٢ / ٢٦٤٢). يتضح مما سلف أن اختياره سبحانه النور

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

ليمثل به نفسه ودينه والطريق إليه، وإن كان ذلك على سبيل المجاز لا الحقيقة، في غاية البلاغة وإصابة القصد، والعامة من المُخاطَبين لن يجدوا صعوبة في إدراك المقصود، ولن يلتبس عليهم فهم الآيات، فهي وإن كانت على الحقيقة أو على المجاز، واضحةٌ ومسلمٌ بها لقيمة النور المادية والمعنوية التي يعرفها الإنسان بفطرته. بل إن الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يكلم موسى – عليه السلام – في الوادي المقدس جذبه بالنور الذي كان يريد منه الدفء والخبر والهدى، ومن هذا يُلاحظ اقتران النور بالله سبحانه لا في المعنى المعنوي والغيبي وحسب، وإنما فيما هو مادي مشاهد أيضًا.

لم تقدم الآيات السابقة اللون الأبيض ومشتقاته – مثلًا – للإشارة إلى طريق الحق، كما لم يقترن هذا اللون بلفظ الجلالة. والأبيض لون محبب وثابتٌ في ذهن المُخاطَب دلالته على الخير، كما أنه أقرب الألوان إلى النور، إذ "يبدو الضوء في كامل قوته أبيض خالصًا، وهو يعطي هذا الانطباع أيضًا وهو في أعلى درجات الروعة المبهرة" (غوته، ٢٠٢٣م، ص٥٩). ويقول الجاحظ(٢٥٥هـ): "كل نور وضياء هو أبيض"؛ (الجاحظ، ١٤٢٤هـ، ج٥، ص٣٣). لذا وصف الله به عباده الفائزين بالنعيم، حين قال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾]آل عمران:١٠٦[. واختاره لوصف نساء الجنة حين قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾]الصافات:٤٩[. ففي هذا اللون من الجمال والصفاء ما يشوق المتلقي لتخيل صورة الفائزين بالجنة وما فيها من حور عين بأقصى درجات الملاحة.

ومع ذلك لا ينافس هذا اللون النور أبدًا؛ لأن الأبيض مهما اشتد بياضًا سيظل النور غالبه، والشيء الأبيض لا يمتد ولا يفيد ما حوله ببياضه، ولكن الشيء المضيء يفيد ما حوله ويمتد إلى ما قدر له أن يمتد. فيغتر المنافقون يومئذٍ بنور المؤمنين الذي يمدهم الله به، فيطلبون قبسًا منه، وتشير ابتسام الصفار إلى أن فعل (نقتبس) يكون لجذوة النار لا النور، ولكن المنافقين وفي انبهارهم بامتداد هذا النور يرجون أن يصيبهم شيءٌ منه، (الصفار، ٢٠١٠م، ص٣٦٩). ثم هم يحرمون منها وبالطريقة الملتوية التي كانوا يمارسونها في الأرض. ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾]الحديد:١٣[. كما أن اللون يعد من السمات التي تستعمل للوصف الدقيق، ويحتاج إلى القرائن التي تبين إن كان وروده على سبيل المدح أم الذم، في حين أن النور يفهم منه غالبًا معاني الجمال، والتعظيم، والقوة، والسيطرة النفعية، ومن دون قرائن. ومن الفروق بين اللون الأبيض والضوء ما يشير إليه الجاحظ في كتابه الحيوان من أن اللون الأبيض مفسد

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

لسائر الألوان، في حين أن الضياء إذا سقط على الألوان فإنه يفصل بين أجناسها، ويميز بعضها عن بعض، ويبين جميعها إبانة واحدة (الجاحظ، ١٤٢٤هـ، ج٥، ص٣٠).

وجديرٌ بالإشارة هنا، أن الله سبحانه وتعالى أقسم في كتابه الكريم بمصادر الضوء في أكثر من سورة، فأقسم: بالنهار، والفجر، والضحى، والعصر. وأقسم بالشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، ومواقع النجوم. وعلى قدر عظم هذا القسم كانت عظمة القول الذي يليه. فـ"بلاغة القسم في القرآن إنما ترجع إلى تلك المطابقة التامة بين المقسَم به والمقسَم عليه أو جواب القسم، وإلى هذا الانسجام الفني بين صورة القسم وجوابه" (عبد التواب، ١٩٩٥م، ص١٩٧). ومثال ذلك سورة الضحى، التي نزلت بعد انقطاع الوحي عن النبي ﷺ فأقسم الله بالضحى دون غيرها من مصادر الضوء، حيث وقت الصباح الأول الذي يتألق فيه الضوء على كل شيءٍ بأبهى ما يكون، ثم بالليل محطة السكون، تشبيهًا بـ "نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه" (ابن القيم الجوزية، ٢٠١٩م، ص١١٠). ويضيف ابن القيم(٧٥١هـ): "إن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا .. لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالحهم في دنياهم وآخرتهم" (ابن القيم الجوزية، ٢٠١٩م، ص١١١). فهذا الضحى الذي أُستضيء به الرسول بعد مدةٍ من الفتور الليلي يتعدى شخص النبي ﷺ ليشمل العباد كلهم إلى يوم الدين.

يشكل النور جمالية فذة، تظهر في بريقه الذي لا يشابهه شيءٌ في الكون – لذا حق أن يكون الممثل المادي عن المجردات الجليلة من حقٍ وخير – وتُنميها المعاني الدالة على النجاة والفلاح، وتزدهر هذه الجمالية في القرآن الكريم، عند تصوير الثنائية الأزلية المُقارِنة بين النور والظلام. "وبمثل هذا الأسلوب يبلغ البيان القرآني غايته من الإقناع والالتزام بالحجة. وعلى نحو ما يجلو معاني من الهدى والضلال، والإيمان والكفر، والحق والباطل، بحسيات مدركة من النور والظلمة" (بنت الشاطئ، ١٩٧٧م، ج٢، ص١٣٥). كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾]البقرة:٢٥٧[. تصور الآية فريقين، يسلك الفريق الأول طريقًا يخرج به من الظلمات إلى النور، وذلك باتخاذه الله وليًا له، وفريقٌ آخر يسلك طريقًا يأخذه من النور إلى الظلمات لاتخاذه الشياطين والأصنام وليًا له. وفي الآية من الناحية اللغوية مقابلة يلجأ إليها القرآن الكريم تحقيقًا لقيم فكرية ومعنوية كثيرة، فهو يعرض جميع القضايا الكبرى في هذا الوجود بأسلوب التقابل، فبهذه المتضادات يدعو إلى تحريك قوى النفس لدى الإنسان ولاسيما قوة العقل كي تقيم موازنة بين الأشياء المختلفة (بطاهر، ٢٠٠٠م، ص٢١٣-٢١٥). فالعباد

كلهم إما في نورٍ أو في ظلام، فلا شبهة بينهما ذلك أن ما هو حق بين وما هو باطلٌ بينٌ أيضًا.

إن النور في الآية الكريمة يدل على سبيل الله، في حين تدل الظلمات على سبل الكفر به سبحانه، وقد أورد البغوي(٥١٠هـ) قولًا للواقدي يشير فيه إلى أن كل ألفاظ النور والظلمات وردت في القرآن الكريم بمعنى الإيمان والكفر ما عدا في سورة الإنعام عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾]الأنعام:١[. فهي دالة على الليل والنهار بحسب رأيه، ويضيف: "سمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه وسمي الإسلام نورًا لوضوح طريقه" (البغوي، ١٩٩٧م، ج١، ص٣١٥). وهذا التعبير يفصل فيه الشعراوي بأسلوبٍ عذب ليصور بدقة قيمة النور في مقابل الظلام فيقول: "يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك. وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية، أليس الأجدر بها أيضًا أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ... أما حين يأتي النور؛ فهو يبيّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن" (الشعراوي، ١٩٩٧م، ج١٠، ص٦٠٣٢). ويفهم من ذلك أن النور يكشف للعين تفاصيل الأشياء من شكلٍ ولون، كما يكشف الإيمان للقلب سر تدابير الله في الخلق، ويكسبه القدرة على التمييز بوضوح،في حين يطغى الظلام بلون السواد فقط، ويحجب عن العين كل شيء، كالكفر الذي يصير به القلب متخبطًا لا يستبين الغاية من أي شيء.

في موضع آخر يستعمل سبحانه النور والظلمات في تصوير مشهدٍ مصيري، في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾]الأنعام:١٢٢[. والمشهد الكامل الذي تصوره الآية هو: رجلان غافلان في الظلام، أحدهما يهديه الله ويفطنه لطريقٍ من نور فيسير فيه. هذا الطريق يمهده الله لمن يريد الهدى، فيسير على نورٍ يكشف له غاية هذا الطريق، بل ويبث في نفسه السكينة والجمال والجلال، "فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير، مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره" (السعدي، ٢٠٠٢م، ص٣٠٣). وآخر مثله، ولفظة (مثله) دليلٌ على أن ما وقع على الغافل الأول يقع على الثاني كذلك، ولكن الأخير اختار البقاء في الظلام ودليل ذلك قوله تعالى ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾. وكلمة (خارج) على وزن اسم فاعل، أي أنه اختار ورغم تفطنه للطريق المستنير أن يظل ميتًا قابعًا في الظلام مغترًا بعمله. وفي ذلك يقول ابن عاشور: "نفي المساواة كناية عن تفضيل إحدى الحالتين على الأخرى تفضيلًا لا يلتبس" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج٨-أ، ص٤٤). ويضيف الآلوسي(١٢٧٠هـ) في وصف هذه الصورة التي تعد

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

بلاغيًا من نوع الاستعارة التمثيلية: "هذا كما تقول في الاستعارة الإفرادية أيكون الأسد كالثعلب؟ أي الشجاع كالجبان، وهو من بديع المعاني الذي ينبغي أن ينتبه له ويحفظ" (الآلوسي، ١٩٩٤م، مج٤، ص٢٦٣).

وعلى هذا الأساس فمجمل قوله تعالى عما سبق، هو: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:١٩-٢٢]. هي أربع حقائق مادية بينها تضادٌ واضح، يدعو الله سبحانه للتفكر فيها، هذه الماديات يعرفها كل إنسان ويعرف مدى اختلافها. إذن، فكما أن هذه الأشياء المذكورات المتباينة المختلفة لا تتساوى، فكذلك لا تتساوى المتضادات المعنوية، وعدم مساواتها أولى، فلا يستوي الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم، والضال والمهتدي، ولا أصحاب النار وأصحاب الجنة، ولا أموات القلوب وأحياؤها (القحطاني، ص٣٤). ويظهر من هذه الآية أن ثنائية النور والظلام لا تنفصل عن ثنائية الحياة والموت، ولا ثنائية الإبصار والعمى. لارتباطها الوثيق ودلالة كل واحدة منها على الأخرى، فالحي لا شك بطبيعته يريد النور ويكون فيه وتستبينه عيناه، والميت يُوضع في الظلام ويكون فيه ولا تستبيه عيناه.

أخيرًا، من الملحوظ أن النور يأتي في القرآن الكريم بصيغة المفرد، في حين يأتي الظلام بصيغة الجمع (ظلمات). وفي ذلك قال ابن كثير(٧٠١هـ): "وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة" (ابن كثير، ٢٠٠٠م، ص٣٢٣،٣٢٢). ويضيف الآلوسي(١٢٧٠هـ): "أو أن الأول إيماء إلى القلة والثاني إلى الكثرة" (الآلوسي، ١٩٩٤م، مج٢، ص١٥). ويشير السيوطي(٩١١هـ)إلى أن في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. ما يدل على إخراج من نكرة إلى معرفة (السيوطي، ١٩٨٨م، ج٣، ص٤٧). ويعدد شوقي إبراهيم علام أسبابًا أخرى فضلا عما سبق، هي: "لفظ (الظلمات) بالجمع أخف، ولفظ (النُّور) بالإفراد أخف، وهما معًا دالان على الجنس، والتعريف الجنسي يستوي فيه المفرد والجمع ... أو أن في ذلك إشارة إلى جنس كلٍّ منهما، فالنُّور له جنسٌ واحدٌ وهو النار، والظلمات كثيرة؛ ولأن كلَّ جِرْمٍ له ظِلٌّ، والظِّلُ هو الظلمة، ومنهم مَن يرى أن النُّور يتعدى إلى غيره بخلاف الظلمة فهي جامدة لا تتعدى؛ فنَاسب المتعدي أن يكون مفردًا، وغير المتعدي أن يكون جَمْعًا" (علام، ٢٠٢٣م، الفقرة ٢). ويظهر جليًا انطلاقًا مما سبق أن تخير الألفاظ في القرآن يكون على أساس منطقي ومما يستوعبه عامة المخاطبين ويعرفونه.

المبحث الثاني: لفظة (النظر) في القرآن الكريم:

إن الله سبحانه يمتن على الإنسان خلقه عينه التي يبصر بها، فيقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾]البلد:٨-١٠[. عينان تتأملان، وبهما يفرق الإنسان بين الحق والباطل، ويقول ابن القيم(٧٥١هـ): "وجَعَل حاسَّة البصر في مُقَدَّمه؛ ليكون كالطَّليعة والحَرَس والكاشف للبدن"؛ (ابن القيم الجوزية، ٢٠١٩م، ج٢، ص٥٤٣). أي: الكاشف لباقي الحواس كنه الأشياء؛ ولذا، كانت أكثر معجزات الأنبياء بصرية، تستغربها الأقوام وتذهل منها، فإما تؤمن أو تستنكر وتقول: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾]الحجر:١٥[. وهم هنا يريدون إنكارًا متعمدًا دلت عليه لفظة (سكرت أبصارنا) التي تبين كذلك حالة نفسية تشكلها بواعث عقدية فاسدة دفينة وإحساس عنيف إلى اتهام الرسول ﷺ بأنه ساحر، (بن فطة، ٢٠٢٠م، ج٥٧، ص٢٥٦). فجاءت هذه الكلمة مبينة لما يتمنونه.

وحتى إبراهيم – عليه السلام – كان طلبه الذي به سيطمئن قلبه هو أن يرى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾]البقرة:٢٦٠[. فبمعاينة المحسوس يطمئن قلب الإنسان بالغيب المجهول، ويزداد يقينًا به،إذ هو بفطرته مؤمن بالله وقدرته، ولكن الرؤية داعمٌ مثبتٌ ليقين القلوب. ولذلك يدعو الله عباده للنظر في خلقه والتفكر في صنيعه؛ ليطمئن العبد بأنه لم يخلق عبثًا وأن له إلهًا لا تبصره الأعين، ولكنه المطلع المدبر وهو على كل شيءٍ قدير. بل وكذلك معجزة النبي محمد ﷺ الخالدة تزدهر بأساليب التصوير التي تستثير خيال المتلقي ليسترجع الصور التي تراها عيناه، ويعتبر منها ما يريد منه سياق الآيات أن يعتبر. "هكذا نجد النسق القرآني، وهو أبدًا حافل بالقوة والفن والإبداع، والاختيار المناسب لكل جزئية من جزئيات التشبيه، بالإضافة إلى أن صور هذا التشبيه الرائع منتزعة من الحقائق المسايرة لنظام الكون، والموافقة لطبائع الناس، كما أنها كلها صور مما يقع عليها البصر، أو يدركها الفكر بلا غموض ولا إبهام" (عبد التواب، ١٩٩٥م، ص٥١).

يعرف القارئُ لكتاب الله أنه قادر على تخيل كل صورة مصورة فيه، ومعرفة أجزائها، وأن هذه الصور قد رأتها عيناه وتدرك ماهيتها، بل وهو قادر على توليد صورٍ أخرى بعناصر مختلفة من الصورة الواحدة في القرآن، لذا حين أقسم الله سبحانه في سورة الحاقة على أن هذا القرآن الكريم هو كلامه الحق و﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ... تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]الحاقة:٤٠-٤٣[. أقسم سبحانه بما هو قطعي كقطعية ثبوت هذا القرآن لله، وهي الموجودات المشاهدة وغير المشاهدة. فقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

تُبْصِرُونَ﴾]الحاقة:٣٨،٣٩[. فالله عبر عن هذا الوجود كله من منظور الإنسان البسيط بمبصَر وغير مبصَر. ونفي القسم أسلوبٌ من أساليب القسم، جاء للدلالة "على أن هذا القرآن قول رسول كريم يعني أنه لوضوحه يَسْتَغني عن القسم" (الرازي، ١٤٢٠هـ، ج٣٠، ص٦٣٣). وكأنه سبحانه يقول كما أفهم من قول الرازي(٦٠٦هـ): إنه لا داعي لأُقسم بما تبصرونه وما لا تبصرونه – وهما حق وتعلمون أنه حق – على أن هذا القرآن قول رسول كريم، وتنزيلٌ من رب العالمين. وفي ذلك يقوم ابن القيم(٧٥١هـ): إن هذا القسم أعم قسمٍ ذكر في القرآن لدخول كل شيءٍ فيه وأن الله في هذا القسم وكأنه يقول: "إن هذا القرآن حقٌ كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حقٌ موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وفيما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق" (ابن القيم الجوزية، ٢٠١٩م، ص٢٦٥). إذن، كانت المبصرات التي تراها العين دليلًا حاسمًا على حقيقة ينكرها المستكبرون فريةً على رسول الله، ومقابلة الله لهم بهذا القسم إلزامٌ لهم بهذه الحقيقة.

يعد خطاب القرآن الكريم خطابًا عامًا كما هو مسلمٌ به بين الدارسين، ومن هذا المنطلق فإن دعوة النظر في الآيات القرآنية تشمل كل العقول، وهي مع ذلك عقولٌ متفاوتة، تستعمل حواسها بطرائقٍ مختلفة، بحسب مقدار وعيها وعلمها، كما أن هذه العقول هي عقول ملولة وتكرار المشاهد عليها يفقدها العظمة، وتصير للناظر أشياء سطحية لا تدل على شيء؛ لذا يعاتب الله أكثر عباده على سوء استعمالهم حواسهم، وفصلها عن فكرهم، فيقول سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾]الحج:٤٦[؛ ذلك أن العين ترى ولكن لا قيمة لما تراه إذا كان منفصلًا عن الفكر، "فإذا أبصر ما في القلب وعمي ما في الرأس لم يضره، وإن أبصر ما في الرأس وعمي ما في القلب لم ينفعه" (النسفي، ١٩٩٨م، ج٢، ص٤٤٦). بل ويتوعد سبحانه لمن ظل على ضلالته وأصر على سوء استعماله لحواسه بالنار، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾]الأعراف:١٧٦[. وفي هذه الآية يتضح أسلوب التصوير القرآني في "بث الجمال في الإتقان الفني لدى تصوير القبح من غير إهمال الوظيفة السامية للصورة المؤثرة ... والحيوان مسخر لصالح البشر، ولا يعني ذكره في الصورة إلا تأكيدًا لبعض الخصوصيات والاستفادة منها للتعبير، ولا سيما الأنعام" (ياسوف، ١٩٩٩م، ص١٣٨). وبهذه الصورة يتبين بشاعة الكبر واتباع الهوى، الذي تصير به حواس المرء لا تختلف عن حواس الأنعام الخاضعة لمن يملكها، المتبعة لشهواتها.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

إن الألفاظ الدالة على النظر لم تأتِ دائمًا بالمعنى الصريح والمعروف للرؤية، ففي مواضع كثيرة جاءت مستعارةً لدلالات أخرى، كالتعبير عن العواطف من حزن، وخوف، وسكون. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾]الأحزاب:١٩[. أو بمعنى الانتظار والتوعد كما في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾]القلم:٥،٦[. أو بمعنى التأمل والتدبر كما في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾]النحل:٣٦[. أو بمعنى الغفلة والضلالة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾]الكهف:١٠١[. ولكن المراد في هذا المبحث، والذي تنصب عليه الدراسة، هو ألفاظ الرؤية الدالة على الاستعمال الفعلي للعين، التي ترى الألوان في المشاهد المتصورة المتشكلة من ضوءٍ ساطع، وعينٍ تنظر، ولا يعني هذا أن الدعوة في هذه الآيات يكون للنظر المحض، بل هو نظرٌ وتفكر؛ لأن من معاني النظر المتجذرة فيه: التأمل. كما يقول الجوهري(٣٩٣هـ): "النظر تأمُّلُ الشيء بالعين" (الجوهري، ١٩٧٤م، ص٥٢٢٣). هذا التأمل يحث على التفكر الذي يوصل الإنسان إلى حقيقة وجود إله لا إله إلا هو، ولقصور الإدراك البشري جاءت هذه الآيات لتبين للإنسان أن عليه أن يتدبر "الدَّلالات الشاهدة لله بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظمَ منه ولا أكمَل، ولا أبرَّ ولا ألطف" (ابن القيم الجوزية، ٢٠١٩م، ج٢، ص٥٨٦).

يظهر من القرآن الكريم أن الآيات التي تُذكر فيها ألفاظ النظر المتعلقة بالرؤية الفعلية في المحسوسات وما شابهها من ألفاظ دالة على معناها – حسب ما بدا لي من الآيات والله أعلم – تكون في الموضوعات الآتية، وهي:

١– النظر للتأمل والتدبر في مخلوقات الله كلها.

٢– إنكار المشركين لما تراه أعينهم من معجزات الله وآياته ونسبها إلى السحر.

٣– طلب رؤية ما لا يمكن رؤيته مع وجوده.

٤– إخبار برؤية مشاهد يوم القيامة وما سيراه الكافرون من عذاب.

١– النظر للتأمل والتدبر في مخلوقات الله كلها:

يدعو الله عباده للنظر في خلقه مراتٍ عديدة بصريح العبارات والألفاظ، ويؤكد أنه سيجعل من خلقه مادةً تستثير العقول للوصول للحق فيقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾]فصلت:٥٣[. وباختلاف البشر وأعمارهم وأزمانهم وثقافاتهم، تختلف طرائق النظر، فالإنسان في وضعه الطبيعي ينظر نحو كل شيء بطريقة عادية، في حين تكون نظرة العالم نظرةً

تفصيلية مجردة، في حين الفنان نظرته جمالية تقويمية، والأديب نظرته وصفية شعورية، والعابد نظرته تأملية عبادية. كل هؤلاء وغيرهم يعنيهم الله بلفظة (سنريهم) وكلهم ستدلهم أعينهم على أن كل ما في الآفاق وفي أنفسهم يشير إلى خالق أحد مطلع على كل شيء. وتدل لفظة سنريهم على أن "الرؤية لا تنتهي؛ لأن (السين) تعني الاستقبال، ... وستظل هناك آيات جديدة وعطاء جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة" (الشعراوي، ١٩٩٧م، ج١٢، ص٧١٦٤).

كثيرًا ما جاءت الدعوة لإعمال البصر في الدنيا بألفاظ دالة على عموم ما فيها، فالله يطلب من عباده النظر في أنفسهم بصورة عامة من دون تحديد لطبيعة هذه النظرة، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾]الذاريات:٢١[. كما يتكرر طلب النظر في السموات والأرض والتفكر فيما تحويهما ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾]الأعراف:١٨٥[. وسبب ذلك عائدٌ إلى أمرين: الأول: أسلوب الخطاب القرآني القائم على الإيجاز، "وهذه ظاهرة بارزة تميز الصورة القرآنية دائمًا عن غيرها من مختلف الأساليب، وهي أنه في تصويره يستثمر برفق أقل ما يمكن من اللفظ في وليد أكثر ما يمكن من المعاني، لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلًا" (عبد التواب، ١٩٩٥م، ص١٤٠). الثاني: أسلوب الخطاب القرآني قائم على حسن الاختيار، فالله سبحانه في اختياره لفظة (ملكوت) مراعاةٌ لمدارك المتلقين وإفساح المجال لتأويلاتهم المختلفة، ففي كلمة ملكوت سعة في المعاني، وأورد ابن حاتم(٣٢٧هـ) في تفسيره بعض الأقاويل فيها، فهي إما بمعنى الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والبحار، أو بمعنى الخلق، أو بمعنى الملك، أو بمعنى الآيات، (أبو حاتم، ١٤١٩هـ، ج٤، ص١٣٢٦). وغيرها. ويقول الشعراوي: "وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه (مُلْك) أما الخفي عنك الذي لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه (ملكوت)" (الشعراوي، ١٩٩٧م، ج٧، ص٤٤٩٥). ويضيف أن ملكوت معناها المبالغة في الملك، والمخاطَب هنا لن تحده درجته المعرفية من تخيل صور متعددة لملكوت الله، لاتساع دلالات هذه الكلمة.

تبدأ كثيرٌ من الآيات الطالبة للنظر في نعيم الدنيا بأداة الاستفهام (ألم) والاستفهام عامةً هو: "طلب حصول صورة الشيء المستفهم عنه في ذهن المستفهم" (الدسوقي، ج٢، ص٣٢٠). تتبعها ألفاظ من مثل: يرَ، يروا، ترَ، تروا، ينظروا. وصيغة (ألم) تأتي دلالةً على التقرير والإنكار، وقد تأتي بأساليب أخرى تحمل الغرض ذاته مثل: أولم، أفلم، أفلا، أفرأيتم. معتمدةً على همزة الاستفهام للإنكار على المخاطب، وهو إنكارٌ "ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيي بالجواب" (الجرجاني، ١٩٩٢م، ص١١٩). فالله

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

يخاطب عباده بهذه الصيغة لينبههم على ما يعلمونه سلفًا، ففي هذا الأسلوب إقرارٌ على المخاطبين بإدراكهم ما سيأتي بعد هذا الاستفهام الإنكاري سواء أكان مما يرونه محسوسًا أو يدركونه في عقولهم، وحتى في آية كونية تكاد تبدو مختصةً بذوي العلم في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾] الأنبياء:٣٠[. فكلمة رتق تعني أن السماوات والأرض كانت شيئًا ملتحمًا ففتقهما الله وهو فاطر السماوات والأرض. وقد يختلف اللغويون في دلالة كلمة (رتق) ويتبحر العلماء في وضع فرضيات نشوء هذا الكون، لكن لكل متفكر في الحد الأدنى من التفكير أن يعرف أن السماوات والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله "ومعنى علمهم بذلك تمكنهم من العلم به بأدنى نظر لأنهما ممكنان، والممكن باعتبار ذاته وحدها يكون معدومًا واتصافه بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود"؛ (الآلوسي، ١٩٩٤م، مج٩، ص٣٤)؛ لذا بدأت الآية بسؤال استنكاري لعتاب الكفار لعدم استعمال فكرهم، وهم يرون السماء والأرض وما فيهما على الدوام، والسؤال عن كيف وجدتا؟ ومن أوجدهما؟ للوصول لنتيجة حتمية واضحة بأن موجد هذه المظاهر العظيمة أعظم من أي شيء ويستحق العبادة.

٢-إنكار المشركين لما تراه أعينهم من معجزات الله وآياته ونسبها إلى السحر.

إن تأثير النظر الشديد في تغيير الفكر والمعتقدات، جعل الكفار والمشركين الذين يستكبرون عن عبادة الله ينسبون ما يرونه من آيات الله المعتادة وغير المعتادة إلى سحر البصر. فيقول الله فيهم: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾]القمر:٢[؛ وذلك أن "أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر" (البخاري، ٢٠٠٢م، ص٨٩٤ / ٣٦٣٧). والسحر "هو المخادعة، والتخييل، أو عزائم ورقى وعُقد" (الهلال، ج٢٧، ص١٤٣). ووصفوا هذا السحر (بالمستمر) أي الدائم، ليبرروا أن تتابع الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ ما هي إلا سحر من ساحر متمكن – حاشاه – وجاءت كلمة (يقولوا) بصيغة المضارع "لتدل على تجدُّد أقوالهم وتكرارها" (الهلال، ج٢٧، ص١٤٣). في جعل السحر حجتهم التي كلما بهروا بآية من آيات الله رموه بها. ولا سبيل لهم إلا أن يقولوا ذلك، إذ كيف يقبل عقل منكرٍ أن يرى القمر المضيء ينشطر قباله، فهذه إما قدرة الله أو أن أعينهم قد سحرت، والخيار الثاني أسلم لقلبه الذي لا يحتمل تغير معتقدٍ باطل ورثه عن آبائه. لذا يقول الله فيهم ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾]الحجر:١٤،١٥[. ورغم حذف جواب (لو) في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم من باب الإيجاز وعلم المخاطَب بهذا الجواب من سياق الآية، إلا أنها لم تحذف هنا؛ لأن "هذه الآية لو حذف الجواب فيها لم يعلم مكانه؛ لأنه يحتمل

وجوها، منها أن يقال: لما آمنوا، أو لطلبوا ما وراء ذلك" (ابن الأثير، ١٤٢٠هـ، ج٢، ص١٠١). وذلك – في رأيي – ليس فقط بسبب وجود أكثر من جواب وحسب، فهو وإن كانت أجوبةً مختلفة لكنها تشير لمعنى واحد هو عنادهم وكبرهم. وإنما جاء الجواب بهذه الألفاظ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾. لإظهار نفسية الكافر الفاجر في كفره، الذي ما كان ليفكر إلا بهذا التسويغ الذي يريد به ألا يدع مجالًا لقلبه أن يهتدي، ويغلق على عقله التفكير بجعل عينه إما قد عطبت أو أنه مسحور. فينكر ما يراه ولو كان بجلال عروج الملائكة الذين جاء وصفهم في الأحاديث بصورة عظيمة، للسماء الكبيرة وهي تنشق. وللمخاطَب أن يتخيل رهبة هذا المشهد، الذي تجتمع فيه قدرة الله سبحانه وتعالى.

٣–طلب رؤية ما لا يمكن رؤيته.

على الرغم من إصرار الكفار على إنكار ما تراه أعينهم إلا أنهم يطمعون برؤية ما لا يمكن رؤيته وما لا يجب السؤال عنه إذ هو ليس مما يقدم أو يؤخر في سبل الهداية إن هم أرادوها حقًا، لكنهم يريدون بذلك إما تعجيزًا للرسول، أو تحديًا لقدرته، فقال سبحانه يعرض حالهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا * يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾]الفرقان:٢١،٢٢[. ابتدأت الآية بوصف هؤلاء المجادلين بعبارة (لا يرجون لقاءنا) ذلك ليدل سبحانه وتعالى على ما هو مخبأ في نفوسهم من أنهم يجادلون لغاية الجدال فقط لا بحثًا عن الحق، ويطلبون ما لا يؤمنون به ويعتقدون باستحالته، ودل على ذلك كلمة (لولا) التي جاءت بمعنى التعجيز والاستحالة، وكأنهم بذلك قد أقاموا الحجة القاطعة على رسول الله ﷺ، فهو يحدثهم بعظمة ما لا يرونه، ولا يستطيع أن يريهم إياه. ولكن الله يبين سبب اغتراهم بحجتهم أنهم ظنوا أنفسهم "أنهم أعلى من أن يتلقوا الدين من رجل مثلهم، ولذلك عقب بقوله: لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوًا كبيرًا على معنى التعجيب من ازدهائهم وغرورهم الباطل" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج١٩، ص٥). ثم يخبرهم الله أنهم سيرون ما يريدون رؤيه، وهذا يدل على أن بعض الغيبيات التي لا ترى اليوم بالعين رغم وجودها كالملائكة سترى يوم القيامة، ولكنهم حينها "يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ففي هذا الاستئناف تلميح وتهكم بهم لأن ابتداءه مطمع بالاستجابة وآخره مؤيسٌ بالوعيد" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج١٩، ص٧).

وقد يكون طلب رؤية الغيب من باب الفضول البشري فقط كحال المؤمنين مع موسى – عليه السلام – حين ذكر الله قولهم: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾]البقرة:٥٥[. في قولهم (لن نؤمن لك) يقول ابن عاشور:

"ومعنى لن نؤمن لك يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى أي أنهم يرتدون في المستقبل عن إيمانهم الذي اتصفوا به من قبل، ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذي دليله المشاهدة أي أن أحد هذين الإيمانين ينتفي إن لم يروا الله جهرة لأن لن لنفي المستقبل" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج١، ص٥٠٦). أي: إنهم يعتقدون أن كمال إيمانهم يكون بمعاينة الغيب، وهكذا هو طبع البشر في جعلهم النظر مرتكزًا أوليًا لما يعتقدون.

ولحكمة يعلمها الله سبحانه، جعل في الكون موجودات لا يمكن لعين الإنسان أن تراها، وهي ما تدخل ضمن مصطلح الغيب ،إذ يمكن أن تحس وأن يلحظ أثرها، ولكنها غيبية طالما أنها ليست في مرأى العين. والعقلانيون يتركون هذه الآثار الدالة والأحاسيس الأكيدة على الغيبيات، ويجعلون رؤية الشيء هي المعيار للمعقول الثابت، وما دونه منفي. في ذلك يقول ابن تيمية: "الرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه. لم تأتِ بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقًا وهي باطل وعارضوا بها النبوات وما جاءت به"؛ (ابن تيمية، ٢٠٠٤م، ج٣، ص٣٣٩). أي: إن الإنسان يضع لنفسه معايير تخالف الواقع تجعله في تخبط ورفض مستمر لكل ما هو خارج إطار رؤيته وقدرته، على أساس أن كل ما لا يرى لا يعقل، وهو بذلك يريد رقيًا ولا يعرف أنه بهذا لن يختلف عن باقي المخلوقات التي يشترك معها بالحس. ويُخلص من هذا أن الغيب ليس معدومًا، ولا هو الذي يحكم العقل باستحالته، أو يكون غير واقعي، كما أنه ليس نقيضًا للواقع، بل نقيضًا للشهادة لقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾]التغابن:١٨[. وإن علم الإنسان بوجود ما هو غيبي شيءٌ فطري يتميز به عن بقية المخلوقات إذ هو يشترك مع سائر الحيوانات في إدراك المحسوسات، ويتميز عنها بالإيمان بإدراك الغيب كما جاء به الوحي (يسري، ٢٠٠٨م، ص٢٣٥،٢٣٤). ولا يوجد ما يقيد خياله طالما لا يدخل في باب الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة.

٤-إخبار برؤية مشاهد يوم القيامة وما سيراه الكافرون من عذاب.

سيكون لعين الإنسان دورها الواضح في الآخرة كما كان لها هذا الدور في الدنيا؛ فهي الكاشفة للإنسان مشاهد يوم القيامة، وسترى أحداث الآخرة الموعودة من أهوال يوم القيامة ثم العذاب أو النعيم قبل أجزاء الإنسان الأخرى، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾]الشورى:٤٤[. فمجرد رؤية العذاب قبل لمسه جعلت الظالمين يستنجدون قائلين: (هل إلى مردٍ من سبيل). وجاءت لفظة (رأوا) بصيغة الماضي لثبوت هذه الرؤية كما يشير ابن عاشور: "ومجيء فعل رأوا العذاب بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه، فالمضي مستعار للاستقبال تشبيهًا للمستقبل بالماضي في التحقق" (ابن عاشور،

١٩٨٤م، ج٢٥، ص١٢٥). فهم لا شك شاهدوه ولن يكون لهم يومها محيصٌ ولا ولي يقيهم شر العذاب. وإن بعض هذه الآيات تأتي لا لتصوير تحقق رؤية المشاهد وحسب، بل وطريقة الرؤية نفسها التي يرى بها الإنسان يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾]الشورى:٤٥[. أي ينظرون من شدة ذلهم وخوفهم بطرف عينهم إلى مشهد العذاب، والهاء في (عليها) تعود للنار حسب ما ذكره الآلوسي(١٢٧٠هـ) (الآلوسي، ١٩٩٤م، مج١٣، ص٥٠).في حين يرى ابن عاشور: إنه قد "حذف مفعول ينظرون للتعميم أي ينظرون العذاب، وينظرون أهوال الحشر وينظرون نعيم المؤمنين من طرف خفي" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج٢٥، ص١٢٨). وتتعدد الآيات التي تصور يوم الحشر، وتصور النعيم والجحيم بألوانهما وأصواتهما وروائحهما، ومن هذه الآيات يمكن أن يتوقع المخاطَب مدى فظاعة المشهد أمامهم، فهم بذلك يسترقون النظر إليها وهي تزمجر كلما رأتهم، أو إلى الملائكة خزنتها وما فيهم من عظم. أو في الفائزين بالنعيم دونهم وهم فرحين مستبشرين.

وصف القرآن الكريم المعرضين عن الرسل، المنكرين لرسالتهم، بالعمي. لما هم فيه من جحود وإصرار على الباطل، فلا يمكن ألا يرى أحدٌ الشمس وقت شروقها – مثلًا – إلا غير المبصر، أي أن النقص يكون فيه لا في الحقيقة الثابتة ذاتها، حينها لا يحق له أن ينكر على غيره ما يراه من هذه الحقيقة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾]الرعد:١٩[. في هذه الآية استفهام استنكاري يقر بعدم مساواة فريق (يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق) وفريق (أعمى). فبين حال الفريق الأول بإطناب صريح، وذلك اتصالًا بأول السورة (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج١٣، ص١٢٣). ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾]الرعد:١[. في حين عبر عن الفريق الآخر بإيجاز مستعار، ذلك أن العمى هو أبلغ كلمة يمكن أن تصف أولئك الذين لا يؤمنون ولا مانع بعد كل الدلائل والمعجزات لإيمانهم. ويسمى هذا عند البلاغيين بـ (الاحتباك) و"هو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابلة في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلة في الأوائل" (الميداني، ١٩٩٦، ج٢، ص٥٤). ولا شك أن سبب ذلك يعود لغاية محددة يفرضها سياق السورة.

والصادم هو أن هذا العمى لا يتوقف عن كونه استعارة ممثلة لحال الكافرين، وإنما سيصير عقابًا فعليًا لهم يوم القيامة، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾]الإسراء:٧٢[. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾] طه:[١٢٤-١٢٦. يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "وجعل الله عقابه يوم الحشر أن يكون أعمى تمثيلًا لحالته الحسية يومئذ بحالته المعنوية في الدنيا، وهي عدم النظر في وسائل الهدى والنجاة. وذلك العمى عنوان على غضب الله عليه وإقصائه عن رحمته" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج١٦، ص٣٣٢). وقد يتساءل سائل عن كيف يمكن أن يذكر الله سبحانه تارةً أن الكافرين يرون العذاب ﴿وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾]الكهف:٥٣[. وتارة أخرى أنهم سيحشرون عميًا، فيقول الشعراوي – رحمه الله – إن البعث يكون على مراحل، فهم في قبورهم عميٌ لا يستطيعون الفرار، ثم يريهم الله آخر محطةٍ لهم في العذاب وهي النار (الشعراوي، ١٩٩٧م، ج١٥، ص٩٤٣٨). ففي كل مراحل العذاب يساقون وهم يجهلون ما سيصيبهم وهذا ما يزيد الكفار رعبًا ويجعلهم صاغرين خاضعين، حتى يَجيءَ بهم إلى النار فتكون أول رؤيتهم لها بأبشع صورةٍ.

الخاتمة:

ختامًا، وكما يتضح مما سبق، حين نقرأ آيات القرآن الكريم نستحضر مشاهد كاملة بحركاتها وألوانها وأصواتها، وهي مشاهد يكتشفها الإنسان من النور الذي يقع عليها ثم ينعكس على عينيه فيبصرها، والإبصار نعمة عظيمة توظفها آيات القرآن الكريم لحضّ القارئ على استعمالها في التأمل والتفكر، إذ هي منطلق الإنسان لتشغيل عقله ثم إدراك الحقائق التي يثبت بها إيمانه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.]الزمر:٢١[. فالله يخاطب عباده عالمًا أنهم قد رؤوا هذه المشاهد بألوانها وأشكالها، وإنما يدعوهم إلى النظر فيها مرةً أخرى مع التفكر والتدبر لتكون موعظة لهم. ويُستنتج من هذا البحث، الآتي:

أولًا: خلق الله سبحانه وتعالى النور، وجعل فيه من السمات ما يستثير الإنسان فيشعره بالجمال والجلال والخضوع، وهذه المشاعر أدت به لأن عبد ما يصدر منه النور، حتى لو كان الكواكب البعيدة في السماء. ولم ينكر سبحانه على الإنسان هذه المشاعر نحو مخلوق من مخلوقاته وإنما ذكرهم أن النور وكل مصادره ما هي إلا مخلوقات مثلهم. وأنه سبحانه هو المستحق للتبجيل والخضوع، وإنه سبحانه هو نور السماوات والأرض، ومن يسير في طريقه فهو على نور، والفائزون يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.

ثانيًا: تكررت ثنائية النور والظلمات في التصوير بأن يكون النور ممثلًا للحق والظلمات للباطل، وهذا التمثيل مما يتناسب مع تصور الإنسان من اقتران جمال الحق بجمال النور، وقبح الباطل بقبح الظلام. فيستطيع المتلقي أن يفهم هذه الصور وما تتضمنه من ظلال ودلالات، وقد بين تعالى أن حتى الظلام ليس ممثلًا للباطل دائمًا، فهو سكينة وأمن، ولو كان النور فقط دون ظلام، لما عُرفت قيمة النور.

ثالثًا: إن العين أداة من أدوات الهداية إلى الله، ولم تقتصر وظيفتها على الرؤية فحسب بل هي وسيلة فاعلة للوصول إلى الحق. وأمر سبحانه الإنسان استعمال نظره بطريقة صحيحة مقترنًا بالتفكر والتدبر، وتكمن صحة النظر في أمرين: أن لا يستكبر فيرمي كل ما يراه بالسحر إن كان يخالف معتقده. ألا يطلب رؤية ما لا يجب رؤيته، وإن كان في رؤيته ضرورة لما حجبه الله عنه، فالمشاهدات حوله تكفي لتوصله إلى صلب الحق.

رابعًا: وعد الله سبحانه من عمي عن آياته استكبارًا في الدنيا، بالعمى الفعلي يوم القيمة، وهذا ما له من التأثير النفسي ما يجعل الكفار يريدون أن يروا حتى لو كان ما يرونه هو طريقهم إلى العذاب، فالجهل بالطريق الموصل للمصير أفظع شعورًا من رؤيته ببشاعته.

خامسًا: إن لفظتي النور والنظر جاءتا في سياقات مبجلة عظيمة، فالنور وصفٌ لله سبحانه، والنظر وسيلة للوصول إلى سبيل الله، وإن كلتيهما مما ورد في أسلوب القسم، فأقسم سبحانه بالمخلوقات التي تحمل النور مراتٍ عديدة، وأقسم بالموجودات بحسب إدراك عقل الإنسان لها في أبسط ما يكون، إما مبصرة وغير مبصرة.

سادسًا: إن قيمة النور والنظر الكبرى تكمن في كونهما: كاشفين، هاديين، ساحرين. من كلا الناحيتين المادية والمعنوية، فهما ماديًا: كاشفان للمرء الأشياء حوله، وهاديان له سبله، وساحران قلبه وعقله بالجمال الذي خلقه ربه. أما معنويًا: فيكشفان له الحق والخير، ويهديانه إلى السكينة والصلاح، ويسحران قلبه بمعاني الأبهة والشرف، والإيمان واليقين.

المراجع:

ابن تيمية. (٢٠٠٤م). مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط١، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية.

ابن عاشور. (١٩٨٤م). التحرير والتنوير. ط١، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن كثير. (٢٠٠٠م). تفسير القرآن العظيم. ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح. (١٤٢٠هـ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

ابن القيم الجوزية. (٢٠١٩م). التبيان في أيمان القرآن. تحقيق: عبدالله بن سالم البطاطي، ط٤، دار عطاءات العلم، الرياض، السعودية.

ابن القيم الجوزية. (٢٠١٩م). مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، ط٣، دار عطاءات العلم، الرياض، السعودية.

أبو حاتم. (١٤١٩هـ). تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم. تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط٣، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية.

الآلوسي، شهاب الدين. (١٩٩٤م). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الألمعي، زاهر عواض. (١٤٠٤هـ). مناهج الجدل في القرآن الكريم. ط٣.

الأندلسي، أبو حيان. (١٩٨٣م). تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تحقيق: سمير المجذوب، ط١، المكتب الإسلامي.

البخاري. (٢٠٠٢م). صحيح البخاري. كتاب المناقب، ط١، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.

البغوي، أبو محمد. (١٩٩٧م). معالم التنزيل في تفسير القرآن. تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع.

الترمذي. (١٩٩٦م). الجامع الكبير (سنن الترمذي). باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

الجاحظ. (١٤٢٤هـ). الحيوان. ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الجرجاني، عبد القاهر. (١٩٩٢م). دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ط٣، دار المدني، جدة، السعودية.

الجوهري، أبو نصر. (١٩٧٤م). الصحاح في اللغة والعلوم. تحقيق: نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي، ط١، دار الحضارة العربية، بيروت، لبنان.

الدسوقي، محمد بن عرفة. (د. ت). حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني. تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

الرازي، فخر الدين. (١٤٢٠هـ). التفسير الكبير. ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (٢٠٠٢م). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط٢، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.

السيوطي. (٢٠١٧م). الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: محمد نصر أبي جبل، ط١، الدار العالمية.

السيوطي. (١٩٨٨م). معترك الأقران في إعجاز القرآن. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الشعراوي. (١٩٩٧م). تفسير الشعراوي. ط١، مطابع أخبار اليوم.

الصفار، ابتسام مرهون. (٢٠١٠م). جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم. ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.

العدوي، مصطفى. (د. ت). كتاب سلسلة التفسير لمصطفى عدوي. المكتبة الشاملة.

الغزالي، أبو حامد. (د. ت). مشكاة الأنوار. تحقيق: أبو العلا عفيفي، ط١، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

القحطاني، سعيد بن وهف. (د. ت). النور والظلمات في ضوء الكتاب والسنة .ط١، مطبعة سفير، الرياض، السعودية.

الميداني، عبد الرحمن بن حسن. (١٩٩٦م). البلاغة العربية .ط١، دار القلم، دمشق، سوريا.

النسفي، أبو البركات. (١٩٩٨م). مدارك التنزيل وحقائق التأويل. تحقيق: يوسف علي بديوي، ط١، دار الكلم الطيب، بيروت، لبنان.

الهلال، محمد. (د. ت). تفسير القرآن الثري الجامع في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي. الكتبة الشاملة.

بطاهر، بن عيسى. (٢٠٠٠م). المقابلة في القرآن الكريم. ط١، دار عمار، عمّان، الأردن.

بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن. (١٩٧٧م). التفسير البياني للقرآن الكريم. ط٥، دار المعارف، القاهرة، مصر.

بن فطة، عبد القادر. (٢٠٢٠م). من روائع المفردة القرآنية .جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية.

درويش، أحمد سامي. (٢٠١٣م). النور في القرآن. الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

سليم، عبد المجيد. (١٩٨٤م). ٣ عناصر للجمال في الحديقة على ضوء ما ورد في القرآن الكريم: اللون – الضوء – الظل. مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.

عبد التواب، صلاح الدين. (١٩٩٥م). الصورة الأدبية في القرآن الكريم. الشركة المصرية العلمية للنشر – لونجمان، الجيزة، مصر.

عبد الرحمن، محمد. (٢٠٢١م). يوم ميلاد الشمس.. علاقة ميلاد المسيح الكاثوليكى بـ عيد إله الشمس الرومانى؟. اليوم السابع، https://www.youm7.com، تاريخ الدخول: ٢٠٢٤/٨/١٧م.

علام، شوفي إبراهيم. (٢٠٢٣م). السر في جمع كلمة "الظلمات" وإفراد كلمة "النور" في القرآن الكريم https://www.dar-alifta.org/ar/fatawa/19864 ،. تاريخ الدخول: ٢٠٢٤/١١/٦م.

غوته، يوهان. (٢٠٢٣م). نظرية الألوان. ترجمة: حيدر عبد الواحد راشد، ط١، دار الرافدين، بغداد، العراق.

مسلم. (١٩٥٥م). صحيح مسلم. باب في قوله عليه السلام: نورٌ أنى أراه، وفي قوله: رأيت نورًا، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

يسري، محمد. (٢٠٠٨م). طريق الهداية – مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة. ط٣، دار اليسر، القاهرة، مصر.

ياسوف، أحمد. (١٩٩٩م). جماليات المفردة القرآنية. ط٢، دمشق، سوريا.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

References

Ibn Taymiyyah (2004). Majmu' al-Fatawa. Edited by Abd al-Rahman ibn Muhammad ibn Qasim, 1st ed., King Fahd Complex for the Printing of the Holy Qur'an, Medina, Saudi Arabia.

Ibn Ashur (1984). At-Tahrir wa al-Tanwir (Editing and Enlightenment). 1st ed., Tunisian Publishing House, Tunisia.

Ibn Kathir (2000). Tafsir al-Qur'an al-Azim (Interpretation of the Noble Qur'an). 1st ed., Ibn Hazm House, Beirut, Lebanon.

Ibn al-Athir, Diya' al-Din Abu al-Fath (1420 AH). The Common Proverb in the Literature of the Writer and Poet. Edited by Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid, 1st ed., Al-Maktaba al-Asriya for Printing and Publishing, Beirut, Lebanon.

Ibn al-Qayyim al-Jawziyyah (2019). Al-Tibyan fi Ayman al-Quran (Oaths in the Qur'an). Edited by Abdullah ibn Salim al-Batati, 4th ed., Dar Atta'at al-Ilm, Riyadh, Saudi Arabia.

Ibn al-Qayyim al-Jawziyyah (2019). Miftah Dar al-Sa'adah (The Key to the Abode of Happiness and the Manuscript of the Wilayat of Knowledge and Will. Edited by Abd al-Rahman ibn Hasan ibn Qa'id, 3rd ed., Dar Atta'at al-Ilm, Riyadh, Saudi Arabia. Abu Hatim (1419 AH). Interpretation of the Noble Qur'an by Ibn Abi Hatim. Edited by As'ad Muhammad al-Tayyib, 3rd ed., Nizar Mustafa al-Baz Library, Saudi Arabia.

Al-Alusi, Shihab al-Din (1994). Ruh al-Ma'ani fi Tafsir al-Qur'an al-'Azim wa al-Sab' al-Mathani (The Spirit of Meanings in the Interpretation of the Noble Qur'an and the Seven Mathani). Edited by Ali Abdul-Bari Attia, 1st ed., Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut, Lebanon.

Al-Almai, Zaher Awad (1404 AH). Methods of Debate in the Noble Qur'an. 3rd ed.

Al-Andalusi, Abu Hayyan (1983). Tuhfat al-Areeb bi ma fi al-Qur'an min al-Gharib (The Gift of the Intelligent in What is Strange in the Qur'an), Edited by Samir al-Majdhub, 1st ed., Islamic Office.

Al-Bukhari (2002). Sahih al-Bukhari. The Book of Virtues, 1st ed., Dar Ibn Kathir, Damascus, Syria.

Al-Baghawi, Abu Muhammad (1997). Ma'alim al-Tanzil fi Tafsir al-Qur'an. Edited by: Muhammad Abdullah Al-Nimr, Othman Jumaa Damiriyya, Suleiman Muslim Al-Harsh, 4th ed., Dar Taiba for Publishing and Distribution.

Al-Tirmidhi (1996). The Great Collection (Sunan Al-Tirmidhi). Chapter: What was said about the division of this nation. Edited by: Bashar Awad Marouf, 1st ed., Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut, Lebanon.

Al-Jahiz (1424 AH). Al-Hayawan (The Animals). 2nd ed., Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.

Al-Jurjani, Abdul-Qahir (1992). Evidence of the Miracle. Edited by: Mahmoud Muhammad Shaker Abu Faher, 3rd ed., Dar Al-Madani, Jeddah, Saudi Arabia.

E-ISSN: 2706-9931 P-ISSN: 1994-473X

Al-Jawhari, Abu Nasr (1974). Al-Sihah in Language and Sciences. Edited by: Nadim Marashli and Osama Marashli, 1st ed., Dar Al-Hadara Al-Arabiyyah, Beirut, Lebanon.

Al-Dasouqi, Muhammad ibn Arafa (n.d.). Al-Dasouqi's Commentary on Mukhtasar Al-Ma'ani by Sa'd Al-Din Al-Taftazani. Edited by: Abdul Hamid Handawi, 1st ed., Al-Maktaba Al-Asriya, Beirut, Lebanon.

Al-Razi, Fakhr al-Din (1420 AH). The Great Commentary. 3rd ed., Dar Ihya' al-Turath Al-Arabi, Beirut, Lebanon.

Al-Sa'di, Abdul Rahman bin Nasser (2002). Taysir al-Karim al-Rahman fi Tafsir Kalam al-Mannan (The Facilitation of the Most Gracious in the Interpretation of the Words of the Generous). Edited by: Abdul Rahman bin Mu'alla al-Luwaihaq, 2nd ed., Dar al-Salam for Publishing and Distribution, Riyadh, Saudi Arabia.

Al-Suyuti (2017). Al-Itqan fi Ulum al-Quran (The Perfection in the Sciences of the Qur'an). Edited by: Muhammad Nasr Abi Jabal, 1st ed., Dar al-Alamiyah.

Al-Suyuti (1988). The Arena of Peers in the Miracle of the Qur'an. 1st ed., Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.

Al-Sha'rawi (1997). Al-Sha'rawi's Interpretation. 1st ed. Akhbar al-Yawm Printing Press.

Al-Saffar, Ibtisam Marhoun (2010). The Aesthetics of Color Formation in the Holy Qur'an. 1st ed., Alam al-Kutub al-Hadith, Irbid, Jordan.

Al-Adawi, Mustafa (n.d.). The Book of the Interpretation Series by Mustafa Adawi. The Comprehensive Library.

Al-Ghazali, Abu Hamid (n.d.). Mishkat al-Anwar. Edited by Abu al-Ala Afifi, 1st ed., National House for Printing and Publishing, Cairo, Egypt.

Al-Qahtani, Sa'id ibn Wahf (n.d.). Light and Darkness in the Light of the Qur'an and Sunnah. 1st ed., Safir Press, Riyadh, Saudi Arabia.

Al-Maydani, Abd al-Rahman ibn Hasan (1996). Arabic Rhetoric. 1st ed., Dar al-Qalam, Damascus, Syria.

Al-Nasafi, Abu al-Barakat (1998). The Realms of Revelation and the Facts of Interpretation. Edited by Yusuf Ali Badawi, 1st ed., Dar al-Kalim al-Tayyib, Beirut, Lebanon.

Al-Hilal, Muhammad (n.d.). A Comprehensive Interpretation of the Qur'an: A Rich and Comprehensive Commentary on the Rhetorical, Linguistic, and Scientific Miracles. The Comprehensive Library.

Bathahir, ibn Issa (2000). Al-Muqabala fi al-Qur'an al-Karim. 1st ed., Dar Ammar, Amman, Jordan.